غزل العقـــــاد

للأستاذ سيد قطب

— ١٩ —

الحب دنيا خاصة طليقة

في الاستعراض السريع الذي قمت به في أوائل الحديث عن « غزل العقاد » عرضت رأيه في « الحب » بالعدد ٢٦٦ من الرسالة ؛ وقلت : إنه يراه « رفعة للنفس ونقلة إلى عالم النجوم ، وأنه قدرة قادرة تهب أصحابها مشابه من الألوهة ومقابس من النبوة »

فمن كمال هذا الرأي أن أذكر اليوم أن من خصائص غزل العقاد ، شعوره بأن الحب يطلقه من قيود الزمان والمكان وضرورات الفناء ، ويمنحه دنيا خاصة طليقة من كل قيد معهود.

ولا يكون الشعور بالحب هكذا ، حتى يكون صاحبه ذا نفس مخلقة ، وذا طبيعة ناضجة ، وذا إحساس مترف . فأما النفس المخلقة فهي لازمة له ليتخلص من قيود الزمان والمكان والضرورات عامة ؛ وأما الطبيعة الناضجة ، فهي ضرورية له ليخلص من اللهفة والوله إلى التأمل والترفع ، وأما الاحساس المترف ، فليغني به عن المتع الرخيصة إلى الانتقاء والاختيار

وفي هذا المجال أذكر مقطوعتين : الأولى بعنوان « عهد بين عامين » يقول منها :

«سعاد» وياحسن هذا النداء ... إذا ما وجدتك لي صاغية
نسيت التواريخ إلا التي ... تعود بذكرك لي راوية
فأنت الزمان وأنت المكان ... وأنت غنى النفس ياغانية
ولست أعد حساب السنين ... بالشمس ظالمة غافية
ولكن بوجهك لي مقبلا ... ونظرتك الحلوة الساجية
فيوم الرضا عالم حافل ... من الحب والذكرة الباقية
ويوم النوى عالم مظلم ... تضل الشموس به هاوية

والثانية بعنوان « سنة جديدة » وفيها يقول :

أدركنا موكب السنين ... في موكب الحب سائرين
والحب من يغش ركبه ... يساير النجم كل حين
راجع حساب السنين يا ... نجم ، فما نحن حاسبين
أبا لألوف احتسبتها ؟ ... أم لم تزل تجمع المئين ؟
ياسنة أقبلت لنا ... أقبلت ميمونة الجبين
وداعنا فليكن غدا ... كما التقينا ... أتسمعين
في موكب الحب نلتقي ... وفيه نمضي مودعين

وفي هذه القطعة يتضح المعنى الذي نحن بصدده ، فهو يفرض أن الدنيا كلها تسير في موكب السنين العادية ، وهما يسيران في موكب وحدهما ، وقد تقابل الموكبان صدفة ، ثم يدع للنجم أن يعدّ سنيه ريما يحسب حسابه لنفسه ، فما هما بحاجة إلى الحساب ، ولكنه يطلب فقط من هذه السنة التي صادفتهما سائرين في موكب الحب أن تودعهما وهما في هذا الموكب نفسه ، وهي كناية طريفة عن الرغبة في دوام الحب واستمراره

وغير هاتين القطعتين كثير متفرق مما يطرق هذا المعنى ويعبر عن هذا الاحساس الذي هو إحدى خصائص غزل العقاد

الحب مطلوب لشوكه كزهره

والحب عند الكثيرين متعة ولذة أو جوى وحرقة ، أما هو عند العقاد فقوة من قوى الطبيعة ، الشوك فيه كالزهر ، والشر كالخير ، كلاهما مطلوب لذاته ، والألم فيه مقبول لأنه كاللذة عنصر فيه أصيل

ولن ينظر إنسان إلى الحب هذه النظرة حتى يخلص به إلى مرتبة «التجريد» بعد أن يسمو به عن الاحساس القريب المحدود

في قصيدة « القربان الضائع » يقول :

إله عرش الجمال ما بي ... يقصر عن وصفه خطابي
ما لضحاياي لا أراها ... إليك بالموضع المجاب
ألوم ؟ أم لا يلام رب ... يكافئ الحب بالعذاب ؟
وكم نجافى إله قوم ... عن سنة العدل في الحساب
بأبي القرابين غاليات ... ويرفع البخس غير آب
فانبذ كثيري فكل حب ... فيه عطاء بلا ثواب
وكن كما كان كل رب ... جل عن الصفو والجواب

إني أشبّ الهيامَ عبرى ... في قبلة القلب كالشهاب
فارمقه أو غض عنه لكن ... دعه على الدهر في التهاب
ولا تخل برده سلاماً ... فالنار خير من التراب
حبك إن أخل منه يوماً ... خلوت في عالم خراب

فهنا حب لا تقبل ضحاياه ، ولكنه يريد هذا الحب مشبوباً ، ولا يريده برداً ولا سلاماً إذا كان هذا السلام يطفئ شعلته ويخبي أواره فيتركه في عالم خراب

وهو في قطعة عنوانها « في البعد والقرب » يبدأ بالتشكي من اختلاف حال البعد والقرب من حبيبه ، فيريد ألا يكون في البعد ناراً . ثم يستدرك فيطلب إليه ان يكون عذاباً كما كان نعيما لأن الحب لا يكمل إلا حين يكون هذا وذاك :

لن يطيب البعد يوماً لن يطيبا ... هن عليّ اليوم إن كنت حبيبا
لا تكن ناراً من الشوق ولا ... دمعة حرى ولا قلبا كئيبا
لا تكن صحراء في البعد وقد ... كنت لي في القرب بستاناً رطيبا
إن تغب شمسا فأوص النوم بي ... قبل أن تعرض عني أو تغيبا

* * *

ياحبيبي بل فكن ما كنت لي ... صانك الله بعيدا وقريبا
واجعل الأنس نصيبي فاذا ... غبت عني فاجعل السهد نصيبا
كن نعيما وعذابا ، ومني ... تملأ النفس ، وحرمانا مذيبا
هكذا الحب دواليك فمن ... لم يكنه لم يكن قط حبيبا

ولن يقول الانسان هكذا إلا وهو مؤمن بالحب أشد الايمان متقبل منه كل ما يأتي به كما يتقبل المؤمن الصوفي كل ما يأتي به الاله في خشوع ورضا واطمئنان

ولا يقف هذا الاحساس في العقاد عند هذا الحد ، فقد يكون بعض الشعراء جاش في نفسه مثله ؛ فانما هو في قطعة ثالثة يتلهف على شوك الحب لهفته على زهره ، لأن هذا الشوك دليل عنده على قوة الحب ونمائه وفورته ، فحبذا هذا الشوك إذن في دلالته ، ولا حبذا العشب المريع من عتيد الحب ، ولو استنام له الآخرون واستروحوه واستلانوه ؛ وذلك في قصيدة فريدة بعنوان « يومنا » وفيها يقول :

سنة كانت ربيعا كلها ... بين روض يتغنى ويضوع
زهر ناهيك من زهر فأنـ ... ـبتت شوكا يكن شوك ربيع

حبذا الشوك من الحب ولا ... حبذا من غيره العشب المريع

فاذا وجدنا من المحبين من يقول : سأقبل الشوك من الحب تضحية واحتمالا ، فان نجد فيهم من يجد في طلبه ويمدحه لأنه شوك ربيع ، فهو دليل حياة ونماء في هذا الحب المطلوب المرغوب

وهذه — كذلك — إحدى خصائص غزل العقاد

التمتع الفني بالحب في كل حالة

وإذا كانت هذه نظرة العقاد إلى الحب ، فكل حالة من حالاته إذن مقبولة ما دامت حية نامية ، وهو إنما يرتفع به عن التاع الحسي إلى التاع الفني ، في رفاهية وترف وطرافة ... اسمعه يحدثك عن « شوق إلى ظبي » والعنوان نفسه يوحي بما وراءه :

رضني يومك إن بدا لك، واتركي ... لي من رضاك غدا علالة طامع
ليس ابتعادك عن هواي بمبعد ... عني هواك، وليس منعك مانعي
إني لألتذ الصدى وأطيله ... شوقاً إلى برد الشراب الناقع

وقد نعرف شاعراً يصبر على البعد ، ويستعيض بالذكرى والحنين ، عن اللقاء والاجتماع ؛ أما أن يطلب الشاعر أن تضن عليه حبيبته يوما حين يبدو لها ، لأنه يلتذ الصدى ويطيله ليلتذ برد الشراب ، فهذا هو الطريف ، وهو وليد الطلاقة الفنية ، والثقة الهانئة !

وكذلك هو في قطعة « سحر السراب » :

هذا سرابك جنة تغرى ... يا فانني بالقرب والذكر
صحراء بعدك ما خلت أبداً ... من كوثر في أفقها يجرى
لكنه يغرى وليس به ... رى ، وعندك لجة النهر
وإذا الشراب خلت كوثره ... من مائها لم تخل من سحر
فافتن بذاك وذاك يسعف لنا ... أمن المقيم ولهفة السفر

فهو مستمتع بكل حالة ، وإذا فاته رى النهر ، فلن يفوته سحر السراب ، وهذا إنما هو فتنة الشاعر ، إذا كان ذلك فتنة الانسان ، والعقاد إنسان وشاعر وكلاهما فيه متفتح يقظ ممتاز

و « قبلة بغير تقبيل » ومن يستطيعها حتى يكون من دقة الحس وقوة التشخيص ما كان العقاد ، وهو يقول :

بعد شهر : أنلتقي بعد شهر ... بين جيش من النواظر جرار ؟
لم يحولوا - وحقهم - بين روحينا ... وإن ألزمها طول صبر
غير القبلة التي تشتهيها ... كلما غير ضم ثغر لثغر

تم منها شوق ، ورفُّ شفاه وهوى نية ، وخفقة صدر

وهكذا يحال القبلة الواحدة إلى عناصر وأحاسيس ، كل منها وحدة تكون جزءاً ، ثم ينظر ما تحقق من « وحدات » القبلة ، فإنما هو كل عنصر روحي فيها ، فلم يبق إلا مظهرها الحسي وهو « ضم ثغر لثغر » وهذا غير ذي غناء لدى محب فنان !

ومن آثر ما يروى في هذا المجال ، أبياته في « عابر سبيل » بعنوان متاع جديد ، وهي فن وحدها ، ولكنه ذو علاقة بمبحثنا هذا. وإنما هي امرأة في الأربعين في محياها ثنايا وغضون كما يكون في بنت الأربعين ، ولكن بث الغرام أحيا قلبها ، ففاض بالجمال على وجهها ، وسوى غضونه وثناياه ، فكانت بذلك خريفاً أحاله الغرام ربيعاً ، وكانت بذلك ... خريفاً لما فيه من معنى عودة الماضي ، وهو المستحيل في دورة الأيام :

من جديد المتاع يوم خريف تحت وهج السماء عاد ربيعا
وحيًّا في الأربعين وديع تحت بث الغرام شب سريعا
نضح القلبُ بالجمال فسوّي من ثنايا الغضون وجهاً بديعا
ذاك أحلى من الشباب شبابا ومن النفس ما يعز رجوعا

يعجبني في هذه الأبيات — أولاً — صدق ملاحظة الواقع، فالمرأة في هذه السن أشد ما تكون استجابة لوهج الغرام ، وهذا أسرع ما يكون في إفاضة الحيوية عليها ، حتى لتصنع المعجزات في سيماها ، وكأنما تخلق خلقاً جديداً . و — ثانياً — تعبيره : « نضح القلب بالجمال » فالقلب هنا هو الذي نضح بهذه الحيوية ، فتسوى ما شوهته الأيام . و — ثالثاً — استطرافه لهذا الجمال العائد المفلت من قيود الزمان بقدرة الحب الفنان . و — رابعاً — حسن استمتاعه بهذه الحالة ، وهو ما سقنا لأجله هنا هذا المثال

وهذه الثالثة من خصائص غزل العقاد

نضوج وفهم للأنوثة

ولقد كنت تحدثت عن مظاهر النضوج النفسي والفني في غزل العقاد ، وفي « سارة » بوجه خاص . فالآن أكمل هذا الحديث، حينما يطلع الناقد على فهم العقاد الكامل للمرأة، وخبرته بمسارب الأنوثة فيها ومطالبها لديها . وهذه لا تكون إلا حيث يكون نضوج الشخصية ، وكمال التجربة ، ووفرة الملاحظة

فيبدو لمن يقنعون بظواهر الأشياء أن المرأة حينما تحب تريد أن « تأخذ » من حبيبها ، وتنتظر هداياه ومواهبه ومنحه ، وإنما هي في الواقع — حينذاك — تتأهب لأن « تعطي » كل شيء ، بل هي تتأهب لأن « تؤخذ » أخذ المشتهى المنتهب ، فتحس حينئذ أنها ذات قيمة تستحق من أجلها الأخذ والحيازة!

« قال الشاعر الفرنسي « دوجيرل » لحبيبته : « لو كنت إلها لأعطيتك الأرض والهواء ، وما على الأرض من بحار ، ولأعطيتك الملائك والشياطين الحانية بين يدي قدرتي وقضائي ، ولأعطيتك الميولي وما في أحشائها من رحم خصيب، بل لأعطيتك الأبد والفضاء والسموات والعالمين — ابتغاء قبلة — واحدة »

وسئل العقاد : « وماذا تعطينى أنت لو كنت إلها ؟ » فقال : أعطيك ؟ ! كيف وما العطاء بخير ما

تبدى القلوب من الغرام الصادق !
بل لو غدوت كما اشتهيت وأشتهي
ربًّا ، أخذتك أنت أخذ الواثق
فترين أنك حين فزت بحظوتي
أحلى وأكمل من جميع خلائقي
وتسيطرين على الصروف وفوقها
نبضات قلبي المستهام الوامق
إن كان رب الكون عندك قلبه أهون لديك بأنجم وصواعق !
وبكل شمس في السماء وضيئة وبكل بحر في البسيطة دافق !

ويبدو هذا الفهم في كل غزل العقاد ، ولكن هذه القطعة أوضح مثال على هذا المذهب فيما بين الرجال والنساء ، في الحب الناضج الطبيعي الصحيح

* * *

عنيت أن أطرق هذه النواحي في غزل العقاد ، وأختار هذه الأمثلة بالذات ، لأوسع الأفق أمام من يهمهم مذاهب الاحساس والتعبير ، ولا سيما في الغزل الذي هو أرحب مجال للأدب النفسي الانساني ، وما من شك أن هذه آفاق جديدة لم يطرقها الشعر العربي إلا لماما ، فهي ثروة تضيفها المدرسة الحديثة ، لا للأدب العربي وحده ، ولكن للأدب الانساني كله . وما بقليل أن يكون لنا شاعر مصري يضيف إلى آداب الانسانية نماذج في الذروة من هذه الآداب

وقد بقيت لي كلمة أخيرة في « غزل العقاد »

فإلى الثناء سير قطب